

حقائق وخفايا وراء العداوة للإسلام

ربما كان المستشرق البريطاني فريد هاليداي أول من اعترف صراحة بأن الشعور في الغرب بالعداء للإسلام يكتسب أبعادا جديدة كل حين، وأن المسلمين الذين يعيشون في المجتمعات الغربية يعانون من التمييز العنصري في هذه الدول. ففي فرنسا يلقى المسلمون مضايقات يومية. وفي الولايات المتحدة انتقلت اللغة المعادية للإسلام والمسلمين من الإعلام إلى الخطاب الديني ثم إلى الخطاب السياسي. وفي الهند يزداد العداء لدى اليمين الشوفيني. وفي دول أوروبا عموما أصبحت نعمة العداء للإسلام والمسلمين ترديدا للقوالب الفكرية والأحكام الجاهزة، وتحولت إلى أيديولوجيا أو نظرية عنصرية.

ويتساءل هاليداي: لماذا ينتشر ويتعمق هذا الشعور في الغرب؟

ويجيب عن هذا السؤال بأن هذه الظاهرة نتيجة لعدة عوامل:

أولا: أن العداء للمسلمين أكبر من العداء للدين الإسلامي ذاته. والذين يعادون المسلمين قليلا ما يرددون المقولات القديمة حول إنكار القرآن ونبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) ولكنهم يعبرون عن كراهيتهم للشخصية الإسلامية وللشعوب الإسلامية. وفي هذا العداء نزعة عنصرية تعادى العناصر العرقية غير الأوروبية، ولذلك فإن العداء يشمل شعوبا فيها عناصر مسلمة وعناصر غير مسلمة مثل الألبان والفلسطينيين، وحتى القوقاز، أي إن المسألة تتعلق بكرهية الأوروبيين لكل من يختلف عنهم من العناصر البشرية الأخرى.

ثانيا: أن العقل الغربي يحمل آثار ذكريات الغزو الإسلامي لأوروبا في القرن السابع، وإن كان التبرير الظاهري هو أن هذا العداء رد فعل على التهديدات ولغة القتال والجهاد التي تصل إلى الغرب من العالم الإسلامي. والتاريخ القديم يقدم مخزونا من الأفكار التي يعتمد عليها مروجو العداء على الجانبين. وفي نفس الوقت فإن كثيرا من المسلمين لديهم الشعور بأن هناك مؤامرة على الإسلام من الغرب منذ قرون بعيدة، ويجدون في القضايا المعلقة بين العالم الإسلامي والغرب دليلا

على هذه المؤامرة مثل قضايا فلسطين، وكشمير، والمناطق الجنوبية في الفلبين، والبوسنة. ومثل الحماس المبالغ فيه في الغرب للدفاع عن سلمان رشدي وأمثاله ممن يسيئون إلى الإسلام، ومثل عدوانية الغرب تجاه الإسلام في بعض الممارسات مثل رفض الحجاب، ورفض السماح بالتعليم الإسلامي للمسلمين. وهناك من يغذى في نفوس المسلمين الشعور بأنهم الضحية، وربما يكون ذلك تكرارا للشعور السائد لدى اليهود الذين يؤمنون بأن المجتمعات غير اليهودية معادية للسامية أي لليهودية. ويقول هاليداي: إن هذا الشعور بالاضطهاد لدى المسلمين واليهود قد يكون صحيحا بدرجة ما، ولكنه ليس بهذه الحدة والقوة التي يتحدثون عنها.

ثالثا: أن في الغرب من يرون أن المسلمين يستحقون ما يحدث لهم، لأنهم هم البادئون بالكراهية والعدوان تجاه الغرب، وهم الذين يستثيرون المشاعر ضدهم. وهناك من يفسرون موقف المسلمين تفسيراً سيكولوجياً، فيرون أن هذا الشعور هو نوع من (الإسقاط) أي اتهام الغرب بما يحملون من عداً لمن يختلف عنهم. وهناك أيضاً من يبرر الموقف العدائى الغربى بأنه استجابة أو رد فعل لتصريحات القادة والمفكرين المسلمين مثل نظرية سيد قطب عن شرور الجاهلية الغربية، أو قول الخمينى بأن الغرب كله فساد. وفي الدول الإسلامية من أعلن أن القرن الحادى والعشرين سيكون قرن التحدى الإسلامى للغرب. وفي الغرب من يرى فعلاً أن التحدى الإسلامى هو قضية هذا القرن بعد زوال التحدى السوفيتى والتحدى اليهودى.

رابعاً: أن السياسيين ورجال الدين في العالم الإسلامى يتحدثون عن القضايا السياسية التى يختلفون فيها مع الغرب بلغة دينية، ويصبغون الصراع السياسى بصبغة إسلامية، ويجعلون من هذه القضايا السياسية قضايا شرعية وكأنها صراع بين المسلمين وغير المسلمين، وليست بين دول تتعارض مصالحها أو أطماعها، ويؤدى ذلك إلى ترسيخ الفكرة لدى الغرب بأن الصراع ليس صراعاً سياسياً، ولكنه صراع دينى. ولو وضعت القضايا الخلافية فى إطارها الصحيح بعيداً عن الدين لكان أدعى لرؤية صحيحة لما هو دينى وما هو سياسى.

خامساً: أن هناك اختلافات ثقافية فى العادات والتقاليد والملابس وأسلوب الحياة بين المجتمعات الغربية والمجتمعات الإسلامية. والمفروض أن يتم الاعتراف من الجانبين بالحق فى الاختلاف والتعاون فى هذا الإطار، ولكن على الجانبين من يعادى الآخرين لمجرد أنهم مختلفون، الأمر الذى يفرض بذل جهود هنا وهناك لتأكيد التسامح وقبول التعددية الثقافية.

سادساً: أن الاختلافات بين المذاهب الإسلامية تصل أحياناً إلى درجة العداء والقطيعة بين أنصار هذه الفرق والمذاهب وتبادل الاتهامات فيما بينهم، ولأن الغربيين لا يفهمون الفروق الدقيقة التى تسببت فى هذا الصراع داخل مجتمعات المسلمين، فإنهم يتحولون من موقف الرفض إلى موقف الكراهية..

سابعاً: أن الكتابات السطحية عن الإسلام في الغرب تحرض على الكراهية مثل الاعتداءات على حقوق الإنسان، وتعدد الزوجات، واعتبار ضرب الزوجات حقاً شرعياً للأزواج، وختان الإناث وحرمان المرأة من حقوقها الإنسانية، بالإضافة إلى العمليات الإرهابية ولغة التهديد الموجهة للغرب من الجماعات الإسلامية على أنها فريضة على المسلم يفرضها الدين الإسلامي..

ويقول هاليداي: ليس كل ما يقال في الغرب عن الإسلام صحيحاً، ولكن يكفي أنه يقال ويتردد دائماً. ويكفي أن يتردد أن المسلم يأمره الإسلام بمعاداة اليهود لأنهم يهود، أو معاداة البهائيين لأنهم بهائيون، وأمثال هذه المقولات التي تثير النفور لدى الغربيين وبالتالي في عقل الغربيين وتؤكد لديهم أن الإسلام والمسلمين هم الخطر الذي يهددهم ويهدد حضارتهم. ويدعو هاليداي العقلاء في الجانبين إلى نظرة مختلفة من كل منهما للآخر.



ويروى هاليداي التاريخ الطويل للعداء بين الغرب والإسلام، في أوروبا والولايات المتحدة، وفي البلقان، والهند. وبالنسبة للغرب كانت موجة العداء الكبرى في القرن السابع عشر بسبب الغزو العثماني لأوروبا، وأيضاً بسبب الحملات الصليبية، وهذا العداء أدى إلى ظهور نظريات تبرره، كما فعل المستشرق الفرنسي الشهير أرنست رينان في عام ١٨٨٣ حين وضع نظريته عن التناقض والعداء الحتمي بين الشخصية الأوروبية العقلانية العلمية وبين الشخصية الإسلامية الراضية للعقل والعلم.

ويؤكد هاليداي أن هذا العداء الذي نشأ منذ غزو الامبراطورية العثمانية لأوروبا مازال مستمراً، حتى إن صورة (المسلم) أصبحت تستدعي صورة (التركي) وذكريات الجزية والعبودية التي كانت تفرضها الامبراطورية العثمانية على الأوروبيين، وما زالت كلمة (تركي) في روسيا تعني (غبي). وما زال الاحتفال بذكرى هزيمة المسلمين في بعض المجتمعات الأوروبية يتم حتى الآن، وعموماً فإن التحليل الصحيح للعلاقة بين الإسلام والغرب يفرض عدم إغفال آثار وذكريات هذه الفترة من التاريخ، كما أنه يجب عدم إغفال آثار وذكريات الحروب الصليبية، والاستعمار الغربي في وعى المسلمين. كما أن ما يقدمه الإعلام الغربي عن الإسلام على أنه مرتبط بالتزمت والتناقض في الفكر والازدواجية في السلوك والإغراق في المتعة الحسية. وما يقدمه الفن والخطاب السياسي عن المرأة المسلمة له تأثيره في تعميق هذه الصورة السلبية عن الإسلام في الغرب. فالمرأة المسلمة كما تبدو في الأفلام وفي قصص ألف ليلة وليلة تبدو في صورة (الحریم) ويبدو الرجل المسلم في صورة (السلطان) الذي لا يرى في المرأة سوى أنها أداة للمتعة، وعلى الجانب الآخر يقدم الإعلام الغربي (المسلم) على أنه عدواني يكره من يخالفه، يمارس القتل وقطع الأيدي. وموقفه من الحياة الاجتماعية والسياسية

موقف سلبي، وأنه منقاد للسلطة تنفيذاً لما يأمره به الإسلام بأن يطيع (أولى الأمر).. وهكذا تتعرض صورة الإسلام والمسلمين للتشويه نتيجة ما ترسب في نفوس الغربيين من نتائج هزيمتهم أمام جحافل المسلمين في ظل الامبراطورية العثمانية.

وفي تحليل هاليداي لظاهرة الكراهية في الغرب للإسلام والمسلمين يرى أن الأمر يختلف من دولة لأخرى، فالدول الأوروبية التي تعرضت لغزو المسلمين يزداد فيها الشعور العدائي أكثر من دول شمال أوروبا. وإيطاليا التي تعرضت للهجمات البحرية من الامبراطورية العثمانية تبدو فيها صورة المسلم على أنه (قرصان). ونجد هذه الصورة أيضاً في أمريكا الشمالية حيث جاءت سفن المسلمين من شمال أفريقيا في بداية القرن التاسع عشر، ودارت المعارك بينها وبين السفن الأمريكية، وما زال الذهن الأمريكي يحمل ذكريات هذه الفترة.. ويرى أن الإسلام والمسلمين يمكن أن يأتي منهما التهديد والعدوان. وحتى في الأدب بما له من تأثير فإن صورة (عطيل) في مسرحية شكسبير لها تأثيرها في تكوين صورة المسلم، وعطيل مسلم من المغرب. وبالنسبة لفرنسا لا يمكن إغفال تأثير الخسائر التي تكبدتها في معارك المقاومة في الجزائر مع الاستعمار الفرنسي والتي استمرت من ١٩٥٤ حتى ١٩٦٢. وإيطاليا لها تجربة مماثلة في ليبيا، وكذلك أسبانيا التي تشعر بالمرارة لخضوعها للمسلمين وتحولها من دولة مسيحية إلى دولة مسلمة لفترة طويلة، وما زالت آثارها القوية في كل مكان وحتى في ملامح الأسبان.



وخلاصة هذا الاستعراض لتاريخ المواجهات بين الغرب والإسلام يرى هاليداي أن ظاهرة العداء والكراهية لها جذور وأسباب متعددة، ويستدل على ذلك أيضاً بالحالة في بريطانيا، فلا يمكن إغفال تأثير الاحتلال البريطاني لمصر والسودان ودول الخليج، ومقتل اللورد جوردون على يد المهديين في السودان، وتواجد مئات الآلاف من الجنود البريطانيين في مصر أثناء الحرب العالمية واعتمادهم على مواد التموين من مصر وما نتج عن ذلك من أزمات التموين بالنسبة للمصريين.

وهكذا لا يمكن إغفال الفترة الامبريالية البريطانية والفرنسية عند محاولة فهم أسباب العداء على الجانبين، ولم يكن المسلمون وحدهم الذين يحملون العداء للبريطانيين، ولكن كان العداء لبريطانيا من غيرهم مثل القوميون الكاثوليك في أيرلندا. والمقاومة للاستعمار البريطاني التي كان يقوم بها الهندوس في الهند، والمنظمات الصهيونية التي كانت تتصادم مع الانتداب البريطاني في فلسطين، وحروب العصابات الأرثوذكسية اليونانية في قبرص، ومنظمة (ماو- ماو) المسيحية والوثنية التي كانت تشن حملات على الوجود البريطاني في كينيا، والمقاومة للوجود البريطاني في مالوى، وهؤلاء جميعاً لم يكونوا مسلمين، ومعنى ذلك أن العدو بالنسبة لبريطانيا لم يكن الإسلام والمسلمين فقط !.

ويستخلص هاليداي من ذلك أن الأفكار الجاهزة الشائعة عن الإسلام في الغرب تكونت من روايات كثيرة، وتغذيها السينما الأمريكية التي تقدم العربى والمسلم على أنه إرهابى، ولص، وانتهازى، ولا يحترم عودته، ومنافق، و«زير نساء»، وتافه، ويمارس الجنس حتى مع الحيوانات. ولم تكن السينما الأمريكية وحدها التي شاركت في صناعة هذه الصورة، ولكن كان إلى جانبها التلفزيون، والدعايات السياسية، والمنظمات المعادية للعرب والمسلمين لأسباب غير دينية.

ويشير هاليداي إلى تكرار الحديث في الكتابات الغربية عن غزو المسلمين لأسبانيا ثم سقوط غرناطة في عام ١٤٩٢ بعد سنوات طويلة من الحكم الإسلامى. ويفغل الكتاب الغربيون أن الحكم الإسلامى في الأندلس (أسبانيا) كان يتسم بالتسامح، وأن الصراع مع الامبراطورية العثمانية كان بدوافع سياسية وليست دينية، وأن القوى الإسلامية كانت تتحالف مع قوى ودول مسيحية في فترات من التاريخ، كما أن الدول الأوروبية عاشت فترات من تاريخها في حروب وصراعات بين دول مسيحية ودول مسيحية أخرى، كما حدث في بداية القرن التاسع عشر على يد نابليون، وفي الثلاثينات والخمسينات من القرن التاسع عشر في حروب بريطانيا، وكذلك الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية بين دول مسيحية أساسا، وكانت الدول الإسلامية حليفة لدول الغرب المسيحى. ويجب ألا ننسى كيف قَدّم القيصر ويلهالم نفسه على أنه بطل العالم الإسلامى، وقدم نابليون نفسه على أنه حامى حِمى الإسلام واعتنق بعض قاداته الإسلام أثناء احتلال نابليون لمصر.. وقَدّم البريطانيون أنفسهم في مصر وشبه الجزيرة العربية على أنهم أصدقاء للعرب، والدور الذى قام به لورانس العرب بادعاءاته. وكذلك يجب ألا ننسى أن الدول الإسلامية تحالفت مع الدول الغربية ضد الأتراك في الحرب العالمية الأولى. ولا ننسى دور المخابرات الأمريكية فى إنشاء وتدريب وتسليح المجاهدين المسلمين فى أفغانستان فى الثمانينات من القرن العشرين. ومساندة دول الغرب للدول العربية والإسلامية فى مواجهة القومية والاشتراكية فى منتصف القرن العشرين، وكل ذلك ليس سوى أمثله يسوقها هاليداي لكى يدل على أن التحالفات والمواجهات بين الغرب والعالم الإسلامى لم تكن دائمة، ولم تكن لأسباب دينية فى كل الأحوال.



ويفرق هاليداي بين نوعين من العداء للمسلمين، أحدهما هو (عداء الدولة) وهو العداء (الاستراتيجى) كما يسميه، والثانى هو (العداء الشعبى) ولكل منهما أسبابه، فعداء الدولة أو العداء الاستراتيجى ناتج عن ثلاثة عوامل أساسية هي:

أولا: مخاوف دول الغرب من الإرهاب القادم من العالم الإسلامى وأثر ذلك على أمن أوروبا وأمريكا.

وثانياً: مخاوف دول الغرب من أن تسيطر على مناطق البترول الإسلامية قوى تعادى الغرب.

وثالثاً: المخاوف من أن تمتلك الدول الإسلامية أسلحة نووية يمكن أن تهدد أمن إسرائيل..

أما (العداء الشعبى) فإنه يتعلق بالقلق من وجود المسلمين داخل المجتمع الغربى وما يمكن أن يترتب على ذلك من تأثير على الثقافة والشخصية الغربية، ومن تزايد هجرة المسلمين إلى دول الغرب، ومن صعوبة التكيف التى تجعل المسلمين جسداً غربياً فى أغلب الأحوال. وهناك أمور أخرى مثل الحجاب الذى يثير المشاكل فى بعض الدول الغربية.

وعند الحديث عن (العداء الاستراتيجى أو عداء الدولة) يرى هاليداي أن ارتفاع أسعار البترول فى السبعينات كانت، من أهم أسبابه، لأن الدول الغربية شعرت أنها واقعة لأول مرة تحت ضغط أجنبي يبدو فى نظرها نوعاً من التهديد أو الابتزاز، ثم جاءت الثورة الإيرانية وما فعلته بالولايات المتحدة فى أزمة الرهائن التى أكدت صورة الإسلام العدوانى المتعصب. ولا يمكن إغفال العداء للمسلمين عامة – وللغرب خاصة – بسبب الصراع العربى الإسرائيلى، وقد ازداد تأثير هذا العامل فى الستينات من القرن العشرين، كما ازداد بعد ذلك نتيجة لحرب ١٩٦٧، والعمليات التى كانت الحركة الفلسطينية تقوم بها، وانعكست كل هذه العوامل فى الصحافة والتلفزيون والأفلام السينمائية. وظهرت بقوة أكبر فى الأدب، كما نرى فى رواية (ليون يوريس Leon Uris) المشهورة (الهجرة والحج). وفى الأفلام الأمريكية ازداد ظهور شخصيات كريهة هى مزيج من العربى والفارسى والمسلم والإرهابى فى تركيبة واحدة.. وأسهم فى هذه الحملة والكرهية ما ظل يعلنه السياسيون الأمريكيون بعد انتهاء الحرب الباردة من أن الولايات المتحدة أصبحت تواجه التهديد من الجماعات الإسلامية المسلحة والتى يمكن أن تحصل بطريقة ما على أسلحة دمار شامل (أسلحة ذرية أو كيميائية) وازداد التأكيد على ذلك فى حرب الخليج ضد صدام حسين فى عامى (١٩٩٠-١٩٩١). وفى عام ١٩٩٠ ألقى (دان كويل) نائب الرئيس الأمريكى خطاباً أمام طلبة الأكاديمية البحرية ربط فيه التطرف الإسلامى بالنازية والشيوعية واعتبرها جميعاً فى منزلة واحدة من الخطر على الحضارة والقيم الغربية.. وفى عام ١٩٩٢ كرر المرشح للرئاسة عن الحزب الجمهورى (بات بوكانان) فى خطابه قوله: (على مدى ألف سنة كان الصراع بين المسيحية والإسلام من أجل إنقاذ البشرية، وفى القرن الحادى والعشرين ربما يستمر الصراع، لأن الشيعة يوجهون إلينا الإهانات، وإخوانهم فى الدين يملئون دول الغرب).. وفى تحليل لمضمون الكتابات الصحفية يظهر أن حملة الكراهية للإسلام كانت فى أعلى قمة لها فى تغطية أحداث معينة مثل اعتقال الدبلوماسيين الأمريكيين فى إيران عام ١٩٧٩، واحتجاز الأمريكيين كرهائن فى لبنان، وتفجير مركز التجارة العالمى فى نيويورك عام ١٩٩٣، وأخيراً هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ على مركز التجارة العالمى فى نيويورك ومبنى

وزارة الدفاع الأمريكية فى العاصمة واشنطن. وكان للفيلم الوثائقى الذى قدمه التلفزيون بعنوان (الجهاد فى أمريكا) تأثير كبير فى مشاعر الأمريكيين، وقد تكرر عرض هذا الفيلم عام ١٩٩٤ وهـ؛ يقدم صورة مثيرة لنوايا جماعات الإسلام السياسى لضرب الولايات المتحدة مباشرة، وازداد القلن. الأمريكى أكثر وأكثر عندما انفجرت قنبلة فى مبنى مكتب التحقيقات الفيدرالية فى أوكلاهوما فى ١٩ أبريل ١٩٩٥ وتسببت فى مقتل المئات، وكان رد الفعل الفورى للمعلقين فى الإعلام، وفى البوليس الأمريكى أن ذلك من عمل إرهابيين من الشرق الأوسط، وعلى الفور تمت ملاحقة الرجال ذوى الملامح الشرق أوسطية. واستعانت شبكات التلفزيون بعشرات من خبراء الإرهاب أجمعوا على أن هذا عمل إرهابى من الإسلاميين، وناشد كثير من السياسيين والمعلقين الحكومة الأمريكية بالتعجيل بتوجيه ضربات وقائية لدول الشرق الأوسط، وحدثت وقائع كثيرة لهجوم أمريكيين على المسلمين والعرب الذين يعيشون فى أمريكا، وتم القبض على أعداد من المسلمين.. وأخيرا ظهر أن الذى قام بالتفجير مواطن أمريكى وليس مسلما أو مهاجرا من بلد آخر.



وهكذا كانت (ثقافة الكراهية) أو (ثقافة العدا) للإسلام فى الولايات المتحدة أكثر قوة وانتشارا مما كانت فى الدول الأوروبية، على رغم أن المجتمع الأمريكى مجتمع متعدد الثقافات ويتكون من مهاجرين من أنحاء العالم، بينما دول أوروبا تضيق بالمهاجرين وتعتبرهم تهديدا، وعلى رغم أن أوروبا تعاني من الإرهاب من غير المسلمين، مثل معاناة بريطانيا من عمليات الإرهاب فى أيرلندا، ومعاناة أسبانيا من العمليات الإرهابية التى تقوم بها منظمة (إيتا) التى تسعى إلى انفصال إقليم (الباسك) عن أسبانيا، ومعاناة ألمانيا من جماعة (بادر ما ينهوف) ومعاناة إيطاليا من جماعة (بريجات روس) بالإضافة إلى الجماعات الفاشية والنازية وغيرها..

وعلى رغم تعدد الجماعات الإرهابية غير الإسلامية فى أنحاء أوروبا. فإن (العداء الاستراتيجى) للإسلام هو العدا الأكبر فى أوروبا، وذلك لشعور الأوروبيين بأنهم أقرب جغرافيا إلى العالم الإسلامى الملىء بالإرهاب، ولتأثر الأوروبيين بالمواقف والدعايات الأمريكية ضد المسلمين، ونذكر فى هذا المقام مقالة كتبها المستشار الشخصى لرئيسة الوزراء البريطانية مارجريت تاتشر (الفريد شيرمان) عام ١٩٩٣ بعنوان (الغزو الجديد للإسلام فى أوروبا) قال فيها: (هناك تهديد إسلامى لأوروبا المسيحية ينمو ببطء ولايزال من الممكن السيطرة عليه، ولكن سياسات الدول الغربية عملت كل شىء لمساعدته على النمو وكانت العوامل التى خلفت هذا التهديد هى: سياسات الهجرة غير المسئولة فى أوروبا التى أدت إلى وجود ١٥ مليون مسلم فيها يمثلون أقلية مناضلة ضد الغرب.. وعزلة تركيا عن المجتمع الأوروبى الذى رفض عضويتها فى الاتحاد الأوروبى، مما دفع تركيا إلى السعى نحو العالم الإسلامى بعد أن كانت تعمل على الابتعاد عنه.. وسياسة ألمانيا العدوانية فى البلقان

لتدمير يوغوسلافيا، وتشيكوسلوفاكيا وجمع صربيا للمسلمين وتحقيق السيادة على المنطقة بالمساعدة من المجر.. ومساندة الفاتيكان لهذه السياسة، وتودد بابا روما للدول العربية بصرف النظر عن مصالح الأقليات المسيحية فيها، والاستعمار الإسلامى التدريجى لغرب ووسط أوروبا نتيجة فقدان الحس بالهوية الوطنية والاجتماعية والروحية فيها.. وانحدار القيم المسيحية والغربية وعدم استيعاب التاريخ الأوروبى وما فيه من تهديد من الإسلام، وانحياز العالم الإسلامى إلى الاتحاد السوفيتى فى فترة الحرب الباردة).

وفى هذا السياق يقدم هاليداي مثالا آخر على الفكر المعادى للمسلمين هو ما كتبه المحلل العسكرى (كلير هولنجروث) تحت عنوان (عقيدة استبدادية أخرى تسعى للسيطرة على الغرب) وقال: التعصب الإسلامى سيصبح التهديد الرئيسى للسلام والأمن فى العالم، وسببا للانزعاج من خلال الإرهاب. وهذا التهديد الإسلامى مماثل لتهديد النازية والفاشية فى الثلاثينات، ثم تهديد الشيوعية فى الخمسينات.

ويصل هاليداي من ذلك إلى أن مشاعر العداء للإسلام والمسلمين فى أوروبا اختلطت فيها عوامل كثيرة أهمها: المشاعر المعادية تجاه المهاجرين عموما، والطبيعة العنصرية الأوروبية، والربط بين الإسلام وبين النازية والفاشية والشيوعية وهى أكثر الأنظمة التى يثير ذكرها النفور والكراهية لدى كل أوروبى. وكانت النتيجة أن توحد فى أوروبا (العداء الشعبى) مع (عداء الدولة) للإسلام والمسلمين، وتفجرت أحداث كثيرة نتيجة لتزايد هذا الشعور العدائى آخرها المنازعات فى فرنسا بسبب قانون منع الحجاب فى المدارس الحكومية ومثل الاحتجاجات فى بريطانيا على فتوى الخمينى بإباحة دم سلمان رشدى مؤلف رواية (آيات شيطانية) التى تنكر أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) رسول الله، وأن القرآن كتاب أنزل عليه من الله، ولم يكن سوى نوبات صرع تصيبه ويفيق منها لينطق بهذه الآيات (استغفر الله). وتفجرت فى ألمانيا موجة عنصرية ضد الأتراك المسلمين، وازدادت فى فرنسا شعبية حزب الجبهة الوطنية برئاسة (جان مارى لوبن) وهو حزب يمينى ودعوته الأساسية ترحيل ثلاثة ملايين من المسلمين المهاجرين من شمال أفريقيا، وكاد زعيم هذا الحزب يفوز برئاسة الجمهورية الفرنسية فى الانتخابات الأخيرة لولا جهود مضنية من أطراف كثيرة فى انتخابات إعادة بينه وبين الرئيس جاك شيراك، وكانت قوة (جان مارى لوبن) تعبيرا عن قوة العداء للعرب والمسلمين إلى حد أن أنصار (لوبن) كانوا يرددون هتافاتهم ضد منافسه (فليذهب شيراك إلى مكة)!



ومما يثير الدهشة أن أصبح اليمين العنصرى المعادى للمسلمين وللإسلام قوة فى بلجيكا أيضا حتى إن الحزب اليميني الفلمنكى (Vlaamse Vromt) كان يهاجم الحكومة بسبب العجز فى

الميزانية نتيجة لإنفاق أموال الشعب البلجيكي على المهاجرين المغاربة الذين ينجبون أطفالا كثيرين فيحصلون على إعانة اجتماعية أكثر من البلجيكيين أصحاب البلاد (!)، وكذلك في السويد أعلن زعيم الحزب الديمقراطي الجديد منذ عام ١٩٩٣ (من الضروري أن أعترف بأن السويد لن يكون فيها مزيد من المساجد) وبعدها بيومين فقط حدث هجوم على أحد المساجد، وفي السويد أيضا أعلن سياسي يميني آخر هو فيفيان فرونجين (لن يطول الزمن حتى نرى الأطفال السويديين يسجدون في مكة!)، وفي النمسا ظل حزب الحرية وزعيمه (جوكن هيدر) يركز على إثارة المخاوف من الهجرة الجماعية للمسلمين إلى النمسا مما يمثل تهديدا لهوية الشعب النمساوي، وظل يعلن: (أن الشعب النمساوي سوف يفقد حضارته مادام في فيينا نسبة كبيرة من الأطفال المسلمين في الفصول بدون الصلبان في رقابهم). وكان نجاحه في الانتخابات وحصول حزبه على أعلى الأصوات دليلا على مدى انتشار التعصب ضد المسلمين والمهاجرين في النمسا، بصرف النظر عن أنه اضطر للاستقالة تحت ضغط دول أوروبا التي خشيت من انتشار النزعة العنصرية فيها.

ويقول هاليداي: إن مثل هذه الأمثلة كثيرة وكلها تعبر عن المشاعر والسياسات العنصرية المعادية للمهاجرين، وزاد من حدة هذه المشاعر الركود الاقتصادي، والشعور بالاستياء من الملونين والمسلمين، وإن كان هذا الشعور ليس وليد اليوم، فقد كان موجودا في بريطانيا أيام الحرب العالمية الأولى ضد المسلمين المهاجرين من اليمن والصومال. وفي سنة ١٩١٩ تفجرت في الموانئ البريطانية أعمال شغب معادية للبحارة العرب وكانوا يوصفون بأنهم زنوج وبلاشفة. وامتد شعور العداء إلى المسلمين القادمين من الهند، وباكستان، وبنجلاديش، واكتسب هذا الشعور الصبغة الدينية في أواخر الثمانينات من القرن العشرين، وخصوصا مع ذبوع رواية سلمان رشدي (آيات شيطانية) والزواج التي أثرت ضد الإسلام بسببها، ثم حرب الخليج. وباختصار كان العداء للمسلمين في أوروبا في سياق الرهبة من الأجانب ووطأة الركود الاقتصادي والتنافس السياسي بين الأحزاب في كل دولة.

ويشير هاليداي إلى أن الخطاب الإسلامي ذاته يردد نفس الأفكار والمفردات التي يستخدمها الغربيون لإثارة العداء على الإسلام. فإن خطب الخميني وقادة إيران والترابي في السودان وعباس مدني في الجزائر تردد رفض القيم الغربية الخاصة بالعلمانية والديمقراطية، وحكم القانون والمساواة بين الرجل والمرأة، وبين المسلمين وغير المسلمين، وتعميم العداء لليهود وللغرب عموما، والإعلان عن هدفهم في تحويل العالم كله إلى الإسلام وإثارة المخاوف في بريطانيا ما تعلنه مجموعات إسلامية من المهاجرين من أن المسلمين أمة واحدة في جميع أنحاء العالم، ولا توجد بين المسلمين حدود، ومعنى ذلك أن ولاء المسلم الذي يحمل الجنسية البريطانية ليس لبريطانيا، ولكن للعالم الإسلامي، وما يتردد على ألسنتهم من دعوة إلى إدخال القيم الإسلامية إلى بريطانيا

وكانهم يريدون أن تكون بريطانيا مثل السعودية أو إيران أو السودان، وبعض الجماعات تعتبر أن لديها رسالة من الله لتحويل المجتمعات غير الإسلامية إلى مجتمعات إسلامية، ومن ذلك ما فعله الخميني حيث بعث بخطاب مفتوح إلى الزعيم السوفيتي جورباتشوف في يناير ١٩٨٩ يدعو فيه إلى التخلي عن النظرية المادية والتفرغ لدراسة الإسلام دراسة جادة، وعزز ذلك الدعوة للجهاد ودعم بعض الجماعات الإرهابية، واللغة الدموية في التعبير عن العداء لأمريكا، وكل ذلك يغذى مشاعر العداء ويعطى مصداقية في نظر الغربيين لنظرية التهديد الإسلامي.



يخلص هاليداي إلى أن العلاقات المتوترة بين الغرب والإسلام تسبب فيها عوامل كثيرة لدى الجانبين، وأخطاء كثيرة من الجانبين، وخرافات وأساطير كثيرة من الجانبين، وهذا يعني أنه لا بد من جهود كبيرة من الجانبين وليس من جانب واحد لتصحيح العلاقة وإزالة الأوهام هنا وهناك، والوقوف أمام المتعصبين المسلمين وأعداء الإسلام المتعصبين أيضا. وإن كانت الأفكار الخاطئة لا يتم القضاء عليها بسهولة، إلا أن القضاء عليها ليس مستحيلا إذا كانت هناك نوايا صادقة وجدية في إثبات حسن النوايا، وقبول تخلى كل طرف عن بعض أفكاره تجاه الطرف الآخر، والرغبة في الالتقاء عند منتصف الطريق.

مثل هذا الموقف من مفكر غربي كبير مثل الفريد هاليداي يدعونا إلى السعي إلى عقد حوارات حقيقية، وجادة ومتعمقة بين مفكرى الإسلام ومفكرى الغرب وبين قادة السياسة والدين والإعلام والشباب، بشرط ألا تكون هذه الحوارات على غرار ما يحدث الآن مجرد لقاءات لتبادل العناق والكلمات الطيبة عن روح المحبة والتسامح التي تسود الجميع، وإلقاء الخطب التي تهدف إلى تمييز المناسبة دون الدخول في العمق والتفتيش عن مكونات الكراهية في العقول.. مثل هذه الحوارات لم تحدث حتى الآن، وكل ما حدث مجرد مقابلات احتفالية وسطحية.. ولأن المشكلة خطيرة وتزداد خطورة مع مرور الزمن واستمرار التجاهل، فإن الوقت ليس لصالح الجانبين.

وفى بحثه عن جذور العداء للإسلام يقول هاليداي: إن الغرب يرى أن نظم الحكم في الدول الإسلامية تحكم باسم الإسلام، وتنسب قراراتها وسلوكها إلى الشريعة، وبناء على ذلك لا يستطيع أحد من (الرعايا) توجيه النقد إلى الحكام، أو المعارضة لسياساتهم، أو المطالبة بتغييرها حتى لا يتعرض بالتهمة الجاهزة وهي الخروج على الشريعة. وهذا ما يجعل المفكرين في الغرب يطالبون بفصل الدين عن الدولة، لأن الدين مقدس لا يجوز المساس به، ونظم الحكم ليست مقدسة ويجوز المساس بها. كذلك فإن الدين ثابت ونظم الحكم متغيرة، ومبادئ وقيم الدين غير قابلة للتغيير. ولكن القوانين متغيرة بالضرورة كلما تطور المجتمع، فإذا قيل إن هذه القوانين هي شرع الله فقد أصبح من الضروري أن تظل جامدة، بينما الظروف الداعية لوجودها في مرحلة قد لا تكون كذلك في مرحلة

أخرى.. وهذا ما يفسر لماذا يعتقد كثير من الغربيين أن هناك رابطة ضرورية بين الإسلام والمسلمين وبين الجمود ورفض التحديث والتجديد ومسيرة العصر.

واتصالاً بهذه الفكرة يرى هاليداي أن العقيدة الدينية في كل الأديان لم تأت لتحديد الطعام الذي يأكله المؤمنون بهذه العقيدة.. وإنما بتحريم بعض الأطعمة فقط.. ولم تأت لتحديد لأصحاب العقائد الأزياء الخاصة لكل منهم، أو طريقة بناء البيوت أو نظم التعليم والعلاج، أو غير ذلك من شئون الحياة اليومية التي تختلف من عصر إلى عصر، ومن مجتمع إلى مجتمع، بينما تتمسك الجماعات الإسلامية بإحكام الدين في كل شيء، دون أن يتركوا ما لله لله، وما للإنسان للإنسان، ويرى كثير من الغربيين أن هذا الاتجاه يفتح الباب أمام تسلط الحكام، ويهدر حقوق الأفراد تجاه السلطة، ويعطى لنظم الحكم صبغة إلهية، وتلك مرحلة - كما يرى - انتهت من تاريخ البشرية. ويرى هؤلاء الغربيون أن كل محاولة لحماية حقوق الإنسان في مثل هذه المجتمعات الإسلامية محكوم عليها بالفشل.

وبعد هذا العرض لآراء المنتقدين في الغرب لفكرة الدولة الدينية يشير إلى ما يتعرض له العالم الإسلامي من ضغوط دولية لتطويع نظم الحكم فيه بما يتفق مع النظم الحديثة القائمة على الديمقراطية، وحقوق الإنسان، والمساواة، وإعلاء صوت الشعوب وامتلاكها لزام أمرها ومشاركتها في القرار وفي الإدارة، ويمكن اعتبار رد فعل العالم الإسلامي على هذه الضغوط حالة أخرى مما يسمى (النسبية الثقافية)، وتتمثل في دفاع بعض التيارات الإسلامية عن موقفها الرافض للتحديث بالحرص على حماية الخصوصية الثقافية والدينية، ويصل هاليداي من ذلك إلى حاجة العالم الإسلامي إلى التوصل إلى صيغة تجمع بين التمسك بالمبادئ والقيم الدينية وبين مساهمة التطور العالمي في المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية، حتى لا تظل المجتمعات الإسلامية غريبة عن العالم ومنفصلة عن حركة التحديث. وينبه إلى أن عزلة المجتمعات الإسلامية يثير في العالم المخاوف مما يمكن أن يصدر عنها من مواقف يمكن أن تؤدي إلى مخاطر وأضرار يصعب تداركها. وباختصار فإنه يدعو العالم إلى التحرك نحو المجتمعات الإسلامية لكي يحسن فهمها ويتعرف على فضائلها، وفي نفس الوقت فإنه يدعو المجتمعات الإسلامية إلى أن تتحرك نحو العالم وتقرب منه وتتفاعل معه، وبذلك يمكن أن تذوب العداوة من الجانبين.

وهذا هو أهم ما توصل إليه هذا المفكر الكبير الذي قال ما يعتقدونه عن المسلمين والغرب، ما لهم وما عليهم. وفي كتاباته رسائل يمكن أن تفيد المسلمين إذا أحسنوا قراءتها.